الجزء الثالث

من دلالات فتح مكة المكرمة

1) ما يتعلق بالهدنة ونقضها

يدلنا سبب فتح مكة على أن أهل العهد والهدنة مع المسلمين إذا حاربوا من هم في ذمة المسلمين وجوارهم صاروا حربا لهم بذلك. ولم يبق بينهم وبين المسلمين من عهد. وهذا ما اتفق عليه علماء المسلمين.

تدلنا الطريقة التي قصد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة على أنه يجوز لإمام المسلمين ورئيسهم أن يفاجئ العدو بالإغارة والحرب لدى خيانته العهد ونبذه له. ولا يجب عليه أن يعلمهم بذلك. أما إذا لم تقع الخيانة وإنما خيف منهم ذلك بسبب علائم ودلائل قوية فلا يجوز حينئذ للإمام أن ينبذ عهدهم ويفاجئهم بالحرب والقتال بل لابد من إعلامهم جميعا بذلك أولا بدليل قوله تعالى: ﴿**وإمّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**﴾(الأنفال/58) أي أعلمهم كلهم عن نبذك لعهدهم.

وفي عمله صلى الله عليه وسلم أيضا دليل على أن مباشرة البعض لنقض العهد بمثابة مباشرة الجميع لذلك ما لم يبد الآخرون استنكارا حقيقيا له. فالنبي صلى الله عليه وسلم اكتفى بسكوت عامة قريش وإقرارهم لما بدر من بعضهم من الإغارة على حلفاء المسلمين، دليلا على أنهم قد دخلوا بذلك معهم في خيانة العهد، وهذا لأنه لما دخلت عامة قريش في أمر الهدنة تبعا لكبارهم وممثليهم اقتضى الأمر أن يخرج أيضا هؤلاء العامة عن الهدنة، تبعا لما قام به كبارهم وزعماؤهم وممثلوهم.

وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع مقاتلة بني قريضة في السنة الخامسة من الهجرة النبوية دون أن يسأل كلا منهم هل نقض العهد أم لا. وكذلك فعل ببني النضير فقد أجلاهم كلهم بسبب خيانتهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين (في السنة قبلها وفيها نزلت سورة الحشر) وإنما كان الذين باشروا الخيانة بضعة أشخاص منهم فقط.

2) حاطب بن أبي بلتعة وما يتعلق بعمله

إننا نجد أنفسنا أمام مظهر جديد آخر لنبوته صلى الله عليه وسلم وما كان يؤيده به الوحي من قبل ربه جل جلاله. لقد قال لبعض أصحابه اذهبوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ضعينة معها كتاب فخذوه منها. فمن الذي أخبره بأمر هذا الكتاب وأطلعه على ما دار بين الضعينة (المرأة) وحاطب بن أبي بلتعة في شأنه؟ إنه الوحي.. وإذا فهي النبوة. وهي التأييد من الله تعالى لنبيه حتى يتم المخطط الإلهي للفتح العظيم الذي أكرم الله به نبيه والمسلمين.

هل يجوز تعذيب المتهم بمختلف الوسائل حملا له على الاعتراف؟ لقد استدل بعضهم بما قاله علي رضي الله عنه لتلك المرأة: " لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب" استدلوا بذلك على أنه يجوز للإمام أو نائبه أن يسلك من الوسائل ما يراه كفيلا بكشف الجريمة وإظهارها. كما استدلوا على ذلك بما روى من أن اليهود غيبوا أموالا في غزوة خيبر لحيي بن أخطب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه: «ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير»؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب. فقال: « العهد قريب والمال أكثر من ذلك ». فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الزبير فمسه بعذاب فقال لهم: قد رأيت حيي يطوف بخربة هنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة.. وبعض الباحثين اليوم يسندون مثل هذا الرأي إلى الإمام مالك رضي الله عنه.

والحق الذي عليه كل الأئمة الأربعة وجمهور الباحثين والعلماء أنه لا يجوز تعذيب المتهم الذي لم تثبت عليه الجريمة ببينة شرعية كافية، حملا له على الإقرار. فالمتهم بريء ما لم تثبت جريمته بدلائل قطعية لا شبهة فيها. وخبر الضعينة التي أرسلها حاطب إلى مكة، وتهديد علي رضي الله عنه ليس من هذا في شيء وذلك لسببين اثنين:

أولا: ليست تلك المرأة مجرد متهمة بما وجهت به، بل هي حقيقة ثابتة، دل عليها خير أصدق الناس قولا وعملا صلى الله عليه وسلم وهو أقوى في دلالته من بينة الاعتراف والإقرار. فكيف يقاس عليها من حامت حوله التهم لمجرد ظنون وشكوك من أناس غير معصومين؟ وما يقال عن هذه المرأة يقال أيضا عن حيي بن أخطب.

ثانيا: ليس إلقاء الثياب للتفتيش عن الكتاب كأمر التعذيب أو الحبس فالفرق بينهما كبير واضح. وإذا ثبت أن الكتاب معها لا محالة ولم يكن من سبيل إلى الوصول إليه إلا بالتنقيب في ثيابها فذلك

أمر مشروع ولا ريب، بل هو واجب استلزمه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما في ذلك من دفع الضر عن المسلمين.

وأما تعذيب الزبير لعم حيي بن أخطب فهو أولا قائم كما قلنا على الحقيقة لا التهمة، ثم هو ثانيا متعلق بأمر الجهاد والحرابة بين المسلمين وغيرهم، فكيف يقاس عليه تعامل المسلمين بعضهم مع بعض. ما زعم أن هذا مذهب ذهب إليه مالك رضي الله عنه في فقهه، فهو زعم باطل مخالف لما هو معروف واضح من مذهبه.

جاء في المدونة وهو من رواية سحنون عن مالك رضي الله عنه قوله: " قلت أرأيت إذا أقر بشيء من الحدود بعد التهديد أو القيد أو الوعيد أو الضرب أو السجن. أيقام عليه الحد أم لا؟ قال مالك: "من أقر بعد التهديد أقيل. فالوعيد والقيد والتهديد والسجن والضرب تهديد عندي كله وأرى أن يقال" ثم قال: "قلت فإن ضرب وهدد فأقر فأخرج القتيل أو أخرج المتاع الذي سرق، أيقيم عليه الحد فيما أقر به أم لا وقد أخرج ذلك؟ قال لا أقيم عليه الحد إلا أن يقر بذلك آمنا لا يخاف شيئا ".

أنزل الله قرآنا بسبب حاطب ابن أبي بلتعة، على أنه لا يجوز للمسلمين في أي الظروف كانوا أن يتخذوا من أعداء الله تعالى أولياء لهم يلقون إليهم بالمودة أو أن يمدوا نحوهم يد الإخاء والتعاون وذلك رغم ما كان قد اعتذر به حاطب من أنه لصيق بقريش ليس له فيها شيعة تدافع عنه أو يحتمي بها. فهو يريد أن يتخذ عندهم يدا يحتمي بها عندما يحتمي غيره بماله بينهم من قرابة وأهل.

إن الآيات القرآنية نزلت صريحة تأمر المسلمين أن يجعلوا ولاءهم لله وحده وأن يقيموا علاقاتهم مع الناس أياً كانوا على أساس ما يقتضيه ولاءهم لهذا الدين الحنيف والإخلاص له وإلاّ كيف يتصور أن يضحي المسلمون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى؟ فيشعر الحق عزّ وجلّ المؤمنين بأنهم منه وإليه يعاديهم من يعاديه فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض وهم أوداؤه وأحباؤه فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه. ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم، وعدوانهم على هذا كله في تجن وظلم.﴿ **وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾(الممتحنة/1). فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة؟ كفروا بالحق واخرجوا الرسول والمؤمنين لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم؟ فهي قضية العقيدة دون سواها وقضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه والإيمان الذي من أجله

أخرجوهم.. فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله وهو عدو الله وعدو رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ **إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي** ﴾(الممتحنة/1)، ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم، وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة، وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها ﴿**تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم** ﴾. ثم يهددهم تهديدا مخيفا، يثير في القلب المؤمن الوجل والمخافة ﴿**ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل** ﴾(الممتحنة/1) وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول؟؟

وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد. ثم تجيء البقية: ﴿ **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون**﴾(الممتحنة/2). فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل، ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل. والأدهى من هذا كله والأشد والأنكر: ﴿**ودوا لو تكفرون**﴾ وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد واللسان فالذي يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز، كنز الإيمان ويرتد إلى الكفر هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان.

والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر ويهتدي بنوره بعد الضلال ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار كما جاء جليا في الحديث الصحيح. فعدو الله هو الذي يريد أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان، وإلى خراب الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور.

3) تأملات في خطابه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح

رأينا أن الرسول صلى الله عليه وسلم استفتح خطابه بقوله: « **لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده** » ثم أعلن أمام قريش والجموع الغفيرة عن المجتمع الإسلامي الذي يقوم على المساواة والعدل بين الناس، وشعاره قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾

(الحجرات/13). وإذاً فالتدفن تحت أقدام المسلمين بقايا تلك المآثر الجاهلية العتيقة العفنة من التفاخر بالآباء والأجداد والتباهي بالقومية والقبلية والعصبيات والاعتداد بفوارق الشكل واللغة والأنساب فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب.

لقد طويت منذ اللحظة جاهلية قريش فالتُطْوَ معها سائر عاداتها وتقاليدها، ولتستعد عما قليل للموعد الحاسم عند إيوان كسرى وداخل بلاد الروم. فأصبحت مكة بعد اليوم مشرق حضارة ومدنية جديدتين تلبس منهما الدنيا كلها حلة من السعادة الإنسانية الشاملة. وهكذا دفنت فعلا في تلك الساعة بقايا المآثر الجاهلية تحت الأقدام وبايعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام على أنه: « **لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**» وعلى أنه لا تعاظم إلا بحلة الإسلام ولا مباهاة إلا بالتمسك بنظامه. وبناء على ذلك ملّكهم الله زمام العالم وأخضع لهم الدنيا..

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس بسبب أنهم من أصل واحد كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته لواء التقوى في ظل الله وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس وللأرض وللقبيلة وللبيت وكلها من الجاهلية وإليها وإن تسمت بشتى الأسماء واكتست شتىّ الأزياء. فهذه الجاهلية التي يحاربها الإسلام جاهلية تحمل رايات عديدة، رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.. وقال صلى الله عليه وسلم عن هذه العصبية الجاهلية « دعوها فإنها منتنة ».

وآسفاه نرى أن هذه العصبية استيقظت من سباتها وأخذت تفتك ذرعا بالمؤمنين وذهبت بدينهم ومقدساتهم فهل من فتح جديد؟؟؟ ألا إن نصر الله قريب..

4) . بيعة النساء للرسول صلى الله عليه وسلم

تدل بيعة النساء رضوان الله عليهن للرسول صلى الله عليه وسلم على أن المرأة شقيقة الرجل تشترك معه في جميع مسؤوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم. ولذلك كان على الخليفة أو الحاكم المسلم أن يأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة المجتمع الإسلامي بكل الوسائل المشروعة الممكنة كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال ليس بينهما فرق ولا تفاوت.

ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن تتعلم شؤون دينها كما يتعلم الرجل وأن تسلك كل السبل المشروعة الممكنة إلى التسلح بسلاح العلم والوعي والتنبه إلى مكامن الكيد وأساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربصون به حتى تستطيع أن تنهض بالعهد الذي قطعته على نفسها وتنفذ عقد البيعة الذي في عنقها.

وواضح أن المرأة لا تستطيع أن تنهض بشيء من هذا إذا كانت جاهلة بحقائق دينها غير منتبهة إلى أساليب الكيد الأجنبي من حولها.. ورحم الله حافظ إبراهيم الذي يقول:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

فلها ما للرجال وعليها ما عليه في إطار مقوماتها وتكوينها العضوي وإذا ساهمت في بناء المجتمع ساهمت من خلال بيت زوجها لا على حساب واجباتها العائلية أو الاجتماعية أو على حساب أخلاقها، وان استطاعت أن توفق بين البيت والمجتمع فلها ما أرادت وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كتب عليكم القتال وهو كره لكم

إن الأمة الإسلامية اليوم تجتاز مرحلة خطيرة من تاريخها حيث تتألب عليها قوى الشر من كل مكان. وها هو الاستعمار البغيض يقتطع كل يوم جزء من بلاد الإسلام، وينكل بالمسلمين في وحشية لا تعرف الرحمة والفضيلة، الأمر الذي يجعل الحاجة ماسة إلى تعاون المسلمين جميعا في إعداد العدة لرد هذا العدوان، وأن يبذلوا أموالهم في سبيل الله وفي نصرة دين الحق والعدالة. وقد تكفل الله عز وجل بأن يخلف عليهم أضعاف ما أنفقوا ويثيبهم على ذلك في الآخرة بالأجر العظيم. قال تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾(البقرة/261) كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم فضل المجاهدين بأموالهم في عديد من أحاديثه التي منها: عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من جهز غازيا فقد غزا ومن خلف (أي قام بتدبير أموره حتى يعود) غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا» (رواه البخاري ومسلم) .

ولقد كان السلف الصالح يتسابقون في بذل أموالهم في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته لعلمهم أن ما في أيديهم إنما هو ملك لله تعالى، والعبد وما ملكت يداه لسيده. ولذلك لما همّ رسول الله صلى

الله عليه وسلم بالخروج في غزوة تبوك (التي وقعت في رجب سنة تسع هجرية) لمهاجمة الروم، حث الناس على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف رضوان الله عليه بأربعة آلاف فقال: يا رسول الله: كانت لي ثمانية آلاف، فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة آلاف، وأقرضت ربي أربعة آلاف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » . وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: " يا رسول الله، عليَّ جهاز من لا جهاز له، فتبرع للمجاهدين بالأطعمة والمطايا بثلاثمائة بعير، ونثر في حجر الرسول صلى الله عليه وسلم ألف دينار فدعا له الرسول بقوله: «اللهم أرض عن عثمان فإني عنه راض».

إن كلمة الجهاد وبمدلولها العام تشمل أنواعا كثيرة: منها جهاد النفس. فالمؤمن لا يمكن أن يخرج لقتال عدوه إلا إذا قهر نفسه وهواها ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم: « المجاهد من جاهد نفسه والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ». وسماه صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر كما جاء في بعض الأحاديث. ومنها مجاهدة الشيطان، وجهاد الكفار باليد والمال واللسان، وجهاد المنافقين بتبليغ الحجة إليهم وإرشادهم إلى الإخلاص في القول والعمل، وجهاد الفساق باليد ثم اللسان ثم بالقلب. قال عليه الصلاة والسلام: « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ».

إن القتال في سبيل الله فريضة شاقة، ولكنها فريضة واجبة الأداء لأن فيها خيرا كثيرا للفرد المسلم وللجماعة المسلمة، وللبشرية كلها وللحق والخير والصلاح. والإسلام يحسب حساب الفطرة فلا ينكر مشقّة هذه الفريضة، ولا يهون من أمرها، ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها. فالإسلام لا يمارى في الفطرة ولا يصادمها ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، ويسلط عليه نورا جديدا، إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته وتسيغ مرارته، وتحقق به خيرا مُخبأ قد لا يراه النظر الإنساني القصير. قال تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ (البقرة/ 216).

عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر، ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها. نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور. إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيرا ووراء المحبوب عند النفس شرا. إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة هو الذي يعلم وحده حيث لا يعلم الناس شيئا من الحقيقة. وعندما تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة، وتتفتح منافذ الرجاء ويستروح القلب في الهاجرة ويجنح إلى الطاعة والأداء في يقين ورضاء.

ألا ترى أن صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم اختاروا العير عند أول وهلة وكرهوا قتال قريش ببدر، واختار الله لهم العزة والنصر والشهادة: فأين اختيارهم من اختيار الله جل علاه: ﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾(المؤمنون/71). فالكثير منا يحب الحق ويؤازره ولكن إذا وافق طبعه وميوله فإذا خالفها ثار عليه وأنكره. فهذا ليس من الإنصاف في شيء.. ولا من شيم أهل الله الكاملين..

أجل فإن النفس لا تستشعر حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان. إن الإذعان الواثق والرجاء الهادئ والسعي المطمئن هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة، وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط في يسر وفي هوادة وفي رخاء. يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال.

فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال، لا ذلكم السلم الذي يدعوا حزبه للخزي والعار والفضيحة. قال تعالى: ﴿**فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم**﴾ (محمد /35) فهذا هو الذي يحذر المؤمنين إياه ، ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين للرسول صلى الله عليه وسلم ليحذروا شبحه من بعيد . وهذا التحذير يشير إلى وجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة، وتهن عزائمهم دونه، ويرغبون في السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب، وربما كان بعضهم ذوي قرابة في المشركين ورحم، أو ذوي مصالح وأموال، وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة.

فالنفس البشرية هي هي، والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها، وقد نجحت والحمد لله نجاحا خارقا باهرا. كيف تدعون إلى السلم وأنتم الأعلون اعتقادا وتصورا للحياة، وارتباطا وصلة بالعلي الأعلى. وأنتم الأعلون، منهجا وهدفا وغاية. وأنتم الأعلون شعورا وخلقا وسلوكا ثم قوة ومكانا ونصرة. فمعكم القوة الكبرى: ﴿**والله معكم**﴾. فلستم وحدكم إنكم في صحبة العلي الجبار، القادر القهار، وهو لكم نصير حاضر معكم، يدافع عنكم. فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم؟ وكل ما تبذلون وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لا يضيع منه شيء عليكم ﴿ **ولن يتركم أعمالكم** ﴾. فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم من يقرر الله سبحانه أنه الأعلى، وأنه معه، وأنه لن يفقد شيئا من عمله فهو مكرم منصور ومأجور. وهو الغالب بالله على كل حال ؟؟

ألم يأن للمسلمين أن يعوا هذه الحقائق ويجسدوها في الميدان ويقاتلوا المعتدين صفا كالبنيان المرصوص؟؟؟..

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة !!

إن مادة القوة تدل على الصلابة والتماسك وتعني أيضا القدرة والاستطاعة في الماديات والمعنويات، ولقد ذكر القرآن الكريم القوة الحسية في البدن حيث قال في سورة الروم: ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾(54). أجل، إنه ضعف البنية الجسدية الممثل في تلك الخلية الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين ثم في الجنين وأطواره وهو فيها كلها واهن ضعيف، ثم في الطفل والصبي حتى يصل إلى سن الفتوة وضلاعة التكوين ثم هو الضعف المادة التي ذرأ منها الإنسان: الطين، الذي لولا نفخة من روح الله لظل في صورته المادية أو في صورته الحيونية وهي بالقياس إلى الخلقة الإنسانية ضعيفة ضعيفة. ثم هو ضعف الكيان النفسي أمام النوازع والدفاعات والميول والشهوات التي لولا النفخة العلوية وما خلقت في تلك البنية من عزائم واستعدادات لكان هذا الكائن أضعف من الحيوان المحكوم بالإلهام. ثم جعل سبحانه وتعالى من بعد هذا الضعف قوة في الكيان الجسدي وفي البناء الإنساني وفي التكوين النفسي والعقلي وبهذه القوة فضله ربه على كثير من المخلوقات قال جل ذكره: ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات**

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾(الإسراء /70) فضله بالعقل على من سواه وسخر له كل ما في الكون الفسيح رغم ضعفه وصغر حجمه ، ليكون خليفة الله في أرضه ليزرع الخير فيها ويزيل كل فساد. ثم جعل سبحانه وتعالى من بعد هذه القوة ضعفا وشيبة، ضعفا في الكيان الإنساني كله فالشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها، وقد يصاحبها انحدار نفسي ناشئ من ضعف الإرادة إلا من عصمه الله وثبت عقله وشبَّ على الطاعة وسلمت الناس من أذاه ونفع خلق الله وقت شبابه بعلمه أو ماله أو جاهه أو صحته أو بهم جميعا فهذا يتمتع في آخر عمره برجاحة العقل واطمئنان الضمير والشوق إلى لقاء مولاه جل علاه فمن شب على الطاعة شاب عليها ومن شاب على القربات مات سعيدا ومن مات كذلك بعث مع الصديقين والشهداء والصالحين.. ومن اشتاق إلى لقاء الله اشتاق الله إلى لقائه فهذا وإن تقدم في الشيخوخة وأرهقه الهرم فداء الهرم هذا لا يتعدى إلى عقله وروحه .. فهو من أولئك الذين استثناهم الله جل ذكره في محكم تنزيله فقال: ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾(التين /4-5-6).

فهؤلاء هم الأقوياء الذين يبقون على سواء الفطرة وقليل ما هم، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها حتى ينتهون بها إلى حياة الكمال في دار الكمال، فلهم أجر غير ممنون، دائم غير مقطوع .. فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين فيظلون ينحدرون بها في المنحدر حتى تستقر في الدرك الأسفل، هناك في جهنم حيث تهدر آدميتهم ويتمحضون للسفول. فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء أما استقامة على الفطرة القويمة وتكميل لها بالإيمان ورفع لها بالعمل الصالح وأما انحراف عن الفطرة القويمة ونهاية أليمة...

والقوة التي تتصل بالمعنويات أنواع وألوان. فهناك قوة الإيمان وقوة الأخلاق وقوة العلم كما أن هناك قوة العمل وقوة الجهاد وقوة الرأي وقوة الكلمة. فإذا توافرت هذه الأنواع لإنسان فقد بلغ قمة ملحوظة في تقدير رجال الأخلاق والفضائل وإذا توافر له جانب من هذه الأنواع كان له من المنزلة بقدر هذا الجانب. أرأيت إذا تطلعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجدناه مثلا باهرا في القوة، ففوق ما آتاه الله من سلامة الحسن والنفس ونقاء الجسم وفتوة البدن (قوته البدنية تعدل قوة الأربعين شابا كسيدنا علي بن طالب رضي الله عنه) آتاه القوة الروحية الأخلاقية القائمة على الثبات وقوة الإرادة وصلابة العزيمة، ولا عجب فهو القائل وقد تألبت عليه جموع المشركين: « والله

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

وهو عليه الصلاة والسلام الذي كان يتحصن به الأشداء الأقوياء من صحابته الكرام في ساحات الجهاد وساعات الهول، حتى يقول عنه الإمام علي رضوان الله عليه: "كنا إذا اشتدّ البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه ".

وهل تشبهنا ولو قليلا بأولئك الرجال الذين بنوا شامخا صرح الإسلام؟ وهل تحصنا بالرسول الكريم واتبعنا نهجه في ديننا ودنيانا؟ كلا! بل تحصنا بالمادة وحب السلطة والجاه حتى أصبح بأسنا بيننا شديدا وقلوبنا شتى وندعي مع ذلك أن العزة لنا لا لغيرنا وأننا هداة أمم العالم أجمع ولا حول ولا قوة إلا بالله... فأين نحن من شروط العزة؟ أليست العزة بحب الجهاد وكراهية الجور والاستبعاد ؟؟

وانظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبب في القوة العاقلة الفاضلة، فكان عليه السلام يدعو ربه قائلا: « أعوذ بك من العجز والكسل » ويقول: « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن "لو" تفتح عمل الشيطان ». ذكره الدكتور أحمد الشرباصي في موسوعته وفي كتابه " أدب النبوة ".

ويقول القرآن المجيد على لسان ابنت شعيب في حق موسى على الجميع الصلاة والسلام: ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾(القصص/26). أي القادر على إنجاز عمله بجد ونشاط مع أمانة وإخلاص. ويروى أن أباها قال لها: " وما علمك بقوته وأمانته؟ " فأجابت: " أنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وأني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه ". والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا كما يحدثنا القرآن الكريم في سورة آل عمران يستعينون بفضيلة القوة على الثبات في المعارك فيقول سبحانه: ﴿ **وكأين من نبي قتل (وفي رواية قاتل) معه ربيون كثير (علماء فقهاء كثيرون) فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وأسرفنا في أمرنا وثبت أقدمنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾(14). ولقد أتت في التنزيل المجيد آية تشمل الدعوة إلى كل

أنواع القوة المادية والمعنوية وهي قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾(60).

وقد ذكر الإمام السيد رشيد رضا رحمه الله في " المنار " عن هذه الآية أن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب التي تدفع العدوان وتحفظ النفوس وتصون الحقوق بأمرين: أولهما إعداد جميع أسباب القوة بقدر الاستطاعة والقوة هنا قد تكون السلاح أو قوة العلم أو قوة الأخلاق أو قوة اليقين أو قوة الإمداد لان كلمة القوة تشمل كل هذه الأنواع وغيرها. وثانيها المرابطة على الحدود والثغور بالجنود المدربين ووسائل الانتقال السريع، وكان أسرع الوسائل عند نزول الآية هي الخيل، وهذان الأمران هما اللذان تعول عليهما جميع الدول التي ارتقت فيها الفنون العسكرية، وتختلف طبعا هذه الوسائل المادية باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان. وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية المباركة ثم قال: « ألا أن القوة الرمي ». وكرّر ذلك ثلاثا.. وهذا إشارة منه عليه السلام إلى أن أركان القوة هو الرمي، لأن رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة.

وإطلاق الرمي في الحديث السابق يشمل كل ما يرمي به العدو من سهم أو قذيفة أو بندقية أو طائرة أو مدفع أو صاروخ أو غير ذلك... ولعل الله تعالى قد أجرى ذلك اللفظ على لسان نبيه مطلقا ليدل على العموم لأمته في كل عصر بحسب ما يرمى به في كل عصر .

فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن أن يلتفوا حول قيادة واحدة رشيدة ويصنعوا أسلحة القتال الحديثة ليحفظوا هيبتهم وحريتهم أمام أعدائهم، ويجب عليهم أن يتعلموا كل الفنون والصناعات التي تمكنهم من صنع هذه الأسلحة والقرآن بعد هذا يقول: ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ (البقرة /193).

والقرآن المجيد يعلمنا أيضا أن قوة الإيمان هي أفضل أنواع القوى، لأنها هي التي تؤدي إلى مجموعة من الفضائل كالإخلاص وصدق الجهاد وصفاء النية وطهارة الطوية، ولاشك أن قوي الإيمان هو الذي يجهر بكلمة الحق ويستجيب لدعوة الصدق وهو الذي يؤدي عمله بإتقان وإحسان ويلتزم الصراط المستقيم في عزيمة ومداومة .

والقرآن المجيد يذكرنا في مواطن عديدة بأمن قوة البغي والطغيان مصيرها الوبال والتلاشي والاضمحلال قال سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿**كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون**﴾(69).

إنها الفتنة بالقوة والفتنة بالأموال والأولاد.. فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون بالقوة العارضة التي تخول لهم الأرض لأنهم يخشون من هو أقوى فينفقون قوتهم في طاعته وإعلاء كلمته وهم لا يفتنون بالأموال والأولاد لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد، فيحرصون على شكر نعمته، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته.. وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجُرون في الأرض ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ...

والنفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر وتعميها النعمة فلا تنظر، وما تنفع عظات الماضي ولا عبره إلا من تتفتح بصائرهم لإدراك سنّة الله التي لا تتخلف ولا تتوقف ولا تحابي أحدا.. طغت الفرس ثم انهزمت وطغت الروم بعدها ثم انهزمت على أيد المسلمين ثم انصدع ملك الدولة الإسلامية نتيجة تكالبنا على الملذات والمغريات وسلكنا لأعدائنا طريق الاستعلاء على الضعفاء وبنينا لهم فوق رؤوسنا عرش حضارتهم وهدمنا كل جسر يربطنا بأصالة أمجادنا السالفين، فتحقق علينا وعد الله وجرت فينا سنّته ...

إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء، نراها في كل زمان وفي كل مكان إلا من رحم الله من عباده المخلصين. فهذا الدين يغلب دائما عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة في أي زمان وفي أي مكان.. فلنسع جميعا إلى إنشاء هذا الوعي فينا وفي الأجيال بعدنا ولنرجع عن غيّنا إلى مصدر القوى والنعم ولنغير ما بنفوسنا من جمود ليأخذ الله بأيدينا إلى سعادة الدارين آمين. يتبع...